دراسة البوليفونية في رواية اللصّ الكلاب لنجيب محفوظ على ضوء نظرية باختين السردية

The study of the polyphony in the novel " al-als av al-kelab " of the Mr Naguib Mahfouz in the base of Bakhtin idea

د. نعيم عموري
د. مائده ظهري عرب (طالبة ماجستير)
جامعة شهيد تشمران اهواز(ايران)
n.amouri@scu.ac.ir

تاريخ الإرسال: 2020/05/30	تاريخ القبول: 2020/08/02	تاريخ النشر: 2020/09/20

الملخص:
احتلت الرواية البوليفونية (متعددة الأصوات)، مؤخرا مكانة متميزة في الأدب الحديث حيث عالجها الناقد الروسي"ميخائيل باختين" في أبحاثه المختلفة وكشف جماليتها وأسلوبيتها وأثرى النقد الروائي بكثير من المفاهيم؛ مثل:الشخصية غير المنجزة، والحوارية، وتعدد الرؤى الإيديولوجية... إلخ. إنّ الرواية البوليفونية تحمل في ثناياها عناصر مختلفة لبناءها ومِن أهمّ ميزاتها هو التعدد الصوتي الذي يحصل بين الشخصيات الروائية. ينوي هذا البحث دراسة البوليفونية أو تعددية الأصوات في رواية "اللصّ والكلاب" للروائي "نجيب محفوظ" على ضوء نظرية ميخائيل باختين حتى يتبين لنا توظيف السارد لهذا النوع من السرد. حاول الروائي نجيب محفوظ من خلال استخدام النظرية السردية لباختين أن يعكس قضية اجتماعية واقعية في فترة من حياته حيث تعرض لأنواع الخيبات ولذلك يجب أن نتناول هذه الرواية في بحثنا الحاليّ للتركيز على تعدّدية الأصوات التي تمثّلت فيها لنتعرف على فكرة الشخصيات ومواقفها وانفعلاتها.
الكلمات المفتاحية: البوليفونية ، ميخائيل باختين، اللصّ والكلاب، نجيب محفوظ.

Abstract :
The Polyphonic Novel (Multiple sounds) recently occupied a distinguished place in modern literature, as the Russian critic Mikhail Bakhtin treated it in his various researches and revealed its aesthetics and style, and enriched the novelistic criticism many concepts, such as: the unfinished personality, the dialogue, and the multiplicity of ideological visions ... etc. The Polyphonic novel contains in its folds various elements for its construction and one of its most important features is the acoustic multiplicity that occurs between the novel characters. This research intends to study the Polyphonic or Multiple sounds in the novel "al-als av al-kelab" by the novelist "Naguib Mahfouz" in base of the idea of Michael Bakhtin to find out how the novelist uses it for this type of narration. Through the use

of Bakhtin's narrative theory, the novelist Najib Mahfouz tried to reflect a realistic social issue in one of his lifes when he was exposed to the types of disappointments and therefore we must address this narration in our current research to focus on the multiplicity of voices in which it was represented in order to learn the idea of the characters, their positions and their emotions.

Key words: polyphony, Michael Bakhtin, al-als av al-kelab, Naguib Mahfouz

1-المقدمة

إن الرواية تحتل مكانة كبيرة في الأدب فهي الفن الأكثر قدرة على التأثير في نفس المتلقي وإنها فن سردي من أهم الفنون السردية كافة، لما تقدمه من ايحاءات ودلالات قيّمة. كانت الرواية على مرّ العصور طريقاً للإبداع بهدف معالجة القضايا الرئيسيّة معبرة عن ايديولوجيات مختلفة وانطلاقاً من هذا المبدأ تجدر الإشارة إلى أن الرواية تنسجم مع غايات المجتمع وتلبي مختلف حاجاته وعلى حد تعريف آخر هي نمط من الأدب الذي يعتبر مجالا واسعا لوصف هموم الإنسان وتصويرها ومعالجة القضايا الاجتماعية والكشف عن مكامن أفكار الإنسان.من المؤكد أن الرواية مازالت تحتل الصدارة، من حيث الأهمية، فلعل سبب ذلك هو جمالها التعبيريّ والفني. لقد عرف "ميخائيل باختين" الرواية بأنها فنّ نثريّ، تخيّلي طويل نسبيا وإنّ هذا الفن بسبب طوله، يعكس عالما من الأحداث والعلاقات الواسعة والمغامرات المثيرة والغامضة أيضا، وفي الرواية تكمن ثقافات إنسانية وأدبية مختلفة.[1] إنّ "باختين" يُعد من الشكلانيين الروس الذين كان لهم الاهتمام الواسع والإشراف على هذا الفن. «ركز ميخائيل باختين، في أبحاثه المختلفة، على جمالية الرواية وأسلوبيتها واهتم، بالخصوص، بالرواية البوليفونية (متعددة الأصوات)، فأثرَى النقد الروائي بكثير من المفاهيم؛ مثل: فضاء العتبة، والشخصية غير المنجزة، والحوارية، وتعدد الرؤى الإيديولوجية... إلخ.»[2]

تتمثل النظرية الشكلانية الروسية في الأدب والنقد بشكل ملفت في العصر المعاصر ويُعَد الشكلانيون الروس من السابقين إلى تطبيق البنيوية اللسانية في دراسة النصوص الأدبية وهذه الدراسات الشكلانية أنصبت اهتمامها لتحليل النصوص الروائية. تنبني الشكلانية الروسية على مجموعة من المبادئ النظرية مثل: التركيز على أدبية النص، والعناية بالشكل، والانفتاح على اللسانيات،والمقاربة

البنيوية،والاهتمام بنظرية الأدب وغيرها من مبادئ أساسية. وفي هذا السياق يمكن القول أنّ الشكلانيين، بصفة عامة، والشكلانيين الروس بصفة خاصة، يرجحون كفة الشكل على المضمون، ويهتمون بالأبنية والأنساق والخطاطات التجريدية، وذلك على حساب المضمون الذهني والعاطفي والإنساني.[3]و يتضح لنا مما سبق إن البوليفونية هي مفهوم وضعه "ميخائيل باختين" لهيكلية الرواية الجديدة وإنها ضرباً من ضروب الرواية بوصفها نوع أدبي تسهم في توسيع أفق السرد.

الرواية جنس أدبي متميز يحظى بآليات وإمكانيات كثيرة تؤهله ليشمل القضايا المختلفة من الحياة والعلاقات الانسانية. لدراسة الرواية بخصائصها المتفردة فلابدّ أن تنطلق من خلال نظرية تشارك ميزاتها، مثل نظرية "الحوارية" لميخائيل باختين. الناقد السوفيتي الكبير، ميخائيل باختين، لا يفصل الشكل والمحتوى في دراسة الرواية، كما لا يفصل الأدب من كونه ظاهرة اجتماعية؛ بل في الاتجاه النقدي المسميّ ب "النقد السوسيونصي" أو ما عرف ب "سوسيولوجيا النص الروائي" يتابع العلاقات الحوارية في النص الروائي. هذه العلاقات تتمّ في مجتمع النص الروائي على أساس أسلوبين: إمّا بإعطاء جميع الأصوات حرية التعبير في الرواية الديالوجية (المتعددة الأصوات أو البوليفونية)؛ وإمّا بأن يهيمن الصوت السارد على جميع الأصوات في الرواية المونولوجية (أحادية الصوت).[4]يعد ميخائيل باختين من أهم النقاد إقبالا للرواية البوليفونية وكان له آراء صائبة حول البوليفونية وقد كرّس جهده للنظر في شكل الرواية وأسلوبها وجمالها الفنيّ.فإن النقد الباختيني يقودنا إلى تحديد نوع الرواية نظرا إلى كيفية سردها. ومن خلال نظريات باختين نعرف أن الرواية التي كثرت فيها الأصوات الروائية هي الرواية البوليفونية . وعلى أساس نظريته يمكن القولأن الرواية البوليفونية هي التي تكثر فيها الشخصيات المتحاورة وتختلف فيها وجهات النظر وهي سمة من سمات السرد القصصي ونوع أدبي للرواية الحديثة التي لا تعتمد على وجهة نظر وحيدة. البوليفونية من أهم الموضوعات التي تطرق إليها ميخائيل باختين وهي أجواء تتيح للشخصيات الدخول إلى عالم الرواية لتشكل مجموعة متماسكة لإبراز وجهات النظر.

والحقيقة أنَّ الرواية البوليفونية هي المبدأ التطوري العام للنوع الأدبي بما أنها حاولت التوغل في المجتمع والكشف عن همومه ومطالعه وآماله؛فالأدباء من خلال البوليفونية حاولوا تصوير واقع مجتمعاتهم في نصوصهم المعبّرة. بالإضافة إلى أنّ

نشأة الرواية البوليفونية_في الساحة الأدبية كانت وليدة حاجة المجتمع إلى أشكال فنية وتعبيرية. ولا يخفى أنّ النوع الأدبي محكوم بالوفاء بحاجات معينة يحددها الوضع الاجتماعي السائد الذي أثمر هذا النوع. فنستطيع القول إن الرواية البوليفونية لعبت دوراً أساسياً_في الساحة الأدبية بشكل لا يوجد لها مثيل_في العصر الحديث.

قد وجدت البوليفونية ترحاباً كبيراً_في العالم العربي من قبل الروائيين وسبب ذلك انفتاحها لطرح أفكار وتعبيرات شتّى_في النص وقد اتخذت الروايات البوليفونية مضموناً وشكلاً يكون أكثر تلائما مع المجتمع والفكر المعاصر. فالكاتب البوليفونيّ بإمكانه الإلمام بكل اطراف الواقع وتصوير محور الأفكار والآراء التي تعبر عنها الشخصيات. فكل شخصية_في الرواية تدلّ على ايديولوجية فريدة وصوتها بمثابة جزء لايتجزأ من العمل الفنيّ. وهذه الميزة لم تكن إلا من إبداعية السرد الباختيني.

إنّ بنية الرواية هي المجال الرحب للتلاحم بين الرؤى المختلفة وأيضاً تعدد الأساليب_في لغات شخصياتها وإنها العامل الأساسي لتجسيد جمالية أشكال الوعي المتعددة فلهذا نرى إن أكثر الروايات العربية الحديثة اتخذت من البوليفونية مجرى للكتابة وإنّ الروائيين يستمدون من نظرية "باختين" أفكارهم محاولين تحقيق الانسجام والتكامل_في رواياتهم. تعتبر الرواية البوليفونية انزياحاً عن الرواية التقليدية التي كانت تتضمنراوياً واحداً يقوم بسرد الأحداث، فاتجهت الرواية الى هذا النوع لتظهر أصوات متعددة_في الروايات لطرح الأفكار المختلفة وهكذا امتاز السرد البوليفوني بتعدد الرواة ومن هنا تنبع أهمية عملية الكشف عن تلك الأساليب_في الرواية العربية ومن هذا المنظور، انطلقت هذه الدراسة باستعانة الأسلوب الوصفي-التحليلي إلى دراسة البوليفونية _في رواية اللصّ والكلاب للروائي نجيب محفوظ بما أنه يعتبر واحداً من الروائيين الذين استخدموا هذا النوع الأدبي وتميّزت أعماله الروائية بأسلوب تعدّد الأصوات. فإنّ هذه الدراسة تهدف إلى دراسة الأصوات المتعدّدة_في رواية اللصّ والكلاب التي تشكلت_في ضوء نظرية باختين السردية.

1-1- أسئلة البحث

هناك أسئلة تعتبر من الدوافع الأساسية التي بثت فينا رغبة جاذبة نحو دراسة البوليفونية في هذه الرواية على ضوء منهج باختين وتطبيقها على النص الروائي.فقد جهدت هذه الدراسة أن تحلل هذه الرواية بغية الإجابة على الأسئلة التالية:

- ما البصمات التي خلقتها البوليفونية في رواية اللصّ والكلاب؟

-كيف تتعدد الرؤى والأصوات حول القضايا المطروحة داخل النصّ الروائي؟

1-2-فرضيات البحث

- إن البوليفونية في رواية اللصّ والكلاب تمثلت في صور متعددة منها:التهجين، والأجناس التعبيرية، والحوارات الخالصة، والتعددية الايديولوجية.

- تتعدد الرؤى والأصوات في النصّ الروائي بشكل رائع وبطريقة السرد البوليفونيّ حيث نرى نظريات مختلفة حول قضية واحدة وكل شخصية تحاول أن تظهر وجهة نظرها حول الموضوع الرئيسي للرواية.

1-3-الدراسات السابقة

لقد وجدنا أن هناك دراسات سابقة حول البوليفونية ، اهتمت بالبحث عن تجليات البوليفونية في روايات عديدة لكن لا يمكن الإلمام بجميع الدراسات السابقة ولذلك نذكر على سبيل المثال رسائل جامعية ومقالات تناولت هذا الموضوع:

-مقالة «مرايا البوليفونية في رواية الزمن الموحش على ضوء نظرية باختين السردية»، مجلة الأدب العربي، السنة الحادية عشرة، العدد الأول، صص 49-70، 2019م،للباحث رضا آنسته وآخرون. اهتم هذا البحث بدراسة البوليفونية وتحليلها وإبراز خصائصها من خلال دراسة رواية الزمن الموحش للروائي السوري "حيدر حيدر" لمعرفة كيفية توظيف الروائي للخصائص البوليفونية.

- مقالة «البوليفونية في الرواية النسوية دراسة مقارنة بين رواية "ذاكرة الجسد" ورواية "چراغ ها را من خاموش ميكنم"»، مجلة الجمعية الايرانية للغة العربية وآدابها، العدد 47، صص 1-18، 2018م، لفاطمة اكبرى زاده. تحلل الباحثة في هذا العمل أسلوبية الرواية والعلاقات الحوارية مقارنة بين الرواية العربية

"ذاكرة الجسد" والفارسية "چراغ ها را من خاموش می‌کنم" على أساس النقد المقارن بين النقد النسوي والنقد الباختيني واستنتجت أن الروايتين خلقت في نصها تعدد الأصوات أو البوليفونية .

- رسالة«شعرية البوليفونية: قراءة في رواية إرهابيس لعزالدين ميهوبي»، الجمهورية الجزائرية،جامعة محمد لمين دبّاغين، 2015-2016م، لِوردية الجاحضة. تطرقت الباحثة في إنجازها إلى أسس الرواية البوليفونية وتطبيقها على نص رواية "إرهابيس" وحاولت الوصول إلى نظرية جديدة في فهم النص الروائي.

-رسالة «تعدد الأصوات في رواية "أشباح المدينة المقتولة" لبشير مفتي»، الجمهورية الجزائرية، جامعة العربي بن مهيدي، 2017-2018م، اعداد الطالبات: أميرة تايب وفيروز بشوع. تناولت هذه الدراسة التعدد اللغوي وبنية الخطاب السردي في رواية "أشباح المدينة المقتولة" حيث اشتملت على التعدد الأسلوبي وتمثلت البوليفونية في الرواية المذكورة في التهجين والأسلبة وتقنيات أخرى جعلت الرواية متعددة الأصوات.

وبناء على متابعة الدراسات السابقة، وصلنا إلى أنّه لا يوجد أي بحث أو مقال مستقل يتناول موضوع "البوليفونية في رواية اللصّ والكلاب لنجيب مجفوظ على ضوء نظرية باختين السردية" ومن أجل هذا نستنتج أن هذا المقال يقوم ببحث جديد وهذا ما يحفّز القارئ على تأمله وقراءته.

2-مفهوم الرواية البوليفونية

لقد هيمنت فكرة البوليفونية على الرواية الحديثة باعتبارها ترجمان لروح العصر نظراً لما تحمله من إيديولوجية تعكس حياة الإنسان وتساهم بقدر واسع في تقديم طروحات مختلفة.«يقصد بالبوليفونية (Poliphonie/polyphony) - لغة- تعدد الأصوات، وقد أخذ هذا المصطلح من عالم الموسيقى، ليتم نقله إلى حقل الأدب والنقد. ومن ثم، فالمقصود بالرواية البوليفونية تلك الرواية التي تتعدد فيها الشخصيات المتحاورة، وتتعدد فيها وجهات النظر، وتختلف فيها الرؤى الإيديولوجية.»[5]ويعرف "ميخائيل باختين" الرواية البوليفونية قائلاً: «إنّ الرواية المتعددة الأصوات ذات طابع حواري على نطاق واسع. وبين جميع عناصر البنية الروائية، توجد دائما علاقات حوارية. أي: إن هذه العناصر جرى وضع بعضها في

مواجهة البعض الآخر، مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي.حقا إنّ العلاقات الحوارية هي ظاهرة أكثر انتشارا بكثير من العلاقات بين الردود الخاصة بالحوار الذي يجري التعبير عنه خلال التكوين. إنها ظاهرة شاملة تقريبا، تتخلل كل الحديث البشري، وكل علاقات وظواهر الحياة الإنسانية. تتخلل تقريبا كل ما له فكرة ومعنى.»[6]ويتضح لنا جليا من خلال هذا التعريف إن البوليفونية عبارة عن واقع الحياة بما أنها تصور الواقع كما هو خير تصوير وتعبر عن الانسان وتترجم موقف الإنسان من ذاته ومن الآخر فبهذا المعنى هي رواية انسانية في مضمونها.

إنّ تعدد الأصوات مفهوم يشير إلى تعدد الأيديولوجيات في الرواية، أما نقيض ذلك هو الذي ترفضه نظرية باختين، وهو مفهوم أحادية الصوت الذي يشير إلى ايدلوجيا واحدة سائدة في الرواية وهذه الفكرة تجعل الرواية على نمطين: الرواية البوليفونية Polyphony والرواية المنولوجية Monology . إنّ الغرض من الرواية المنولوجية هي سيطرة وتحكم الراوي العالم بكل شيء وبما أن «أصبحت المنولوجية غير محتملة في العصر الحديث مع التطور الثقافي العريض للعقل البشري»[7] لهذا ظهرت البوليفونية لتحتوي على وعي الشخصيات من خلال استقلال كل شخصية وحريتها في صوتها ونرى بوضوح في هذا الجنس الأدبي أن لا وجود لهيمنة الكاتب؛ على هذا الأساس نستطيع القول إنّ الرواية البوليفونية تقابل الرواية المنولوجية أي أحادية الصوت بحيث لا يقف الأمر في هذه الرواية على السارد العالم بكل شيء؛ بل تبرز الشخصيات المختلفة وتتميز الرواية بالتعدد الصوتي الذي يحكم التماسك بين الشخصيات لذلك تلعب البوليفونية دورا هاما في العمل السردي.

إنّ حقيقة انقسام الرواية لنمطين سرديين، الراوي بضمير المتكلم والراوي بضمير الغائب يوضح لنا خاصية متعددة الأصوات أو البوليفونية وفقاً لاستخدام باختين لهذا المصطلح، لكن لا تحيلنا هذه النظرية على أنه يسعى لموت المؤلف بل العكس وهذا لما أورده باختين عن المؤلف قرين الرواية وهذا لوقوفه خلف روايته، ولكنه لا يخلها كصوت مسيطر موجه للقارئ، كما أن البوليفونية تعارض رأي من يسعى إلى أن يحدد وجهة نظر رسميته تحدد خطابا واحد يسود كل الخطابات وبهذا تقدم لنا الرواية عالما حواريا حرفيا.يتبين لناما سبق ذكره، إنّ الرواية تعتمد اعتماداً رئيسياً على أصوات الشخصية وهي التي تمارس في إنجاز العمل الروائي

وتكون هذه الأصوات تقنية تسهم في نمو الرواية وازدهارها.[8] مصطلح البوليفونية هو مصطلح حديث عالجه الناقد الروسى "باختين" في دراساته النقدية النظرية والتطبيقية وإنه مصطلح يطلق على الرواية الحوارية التعددية، التي تنحو المنحى الديمقراطي؛ حيث تتحرر، بشكل من الأشكال، من سلطة الراوي المطلق، وتتخلص أيضا من أحادية المنظور واللغة والأسلوب. وبتعبير آخر، يتم الحديث، في هذه الرواية المتعددة الأصوات والمنظورات، عن حرية البطل النسبية، واستقلالية الشخصية في التعبير عن مواقفها بكل حرية وصراحة، ولو كانت هذه المواقف، بحال من الأحوال، مخالفة لرأي الكاتب. وللتوضيح أكثر: تسرد كل شخصية الحدث الروائي بطريقتها الخاصة، بواسطة منظورها الشخصي، ومن زاوية نظرها الفردية، وبأسلوبها الفردي الخاص. بمعنى أن الرواية تقدم عصارتها الإبداعية وأطروحتها المرجعية عبر أصوات متعددة. وهذا ما يجعل القارئ الضمني الواعي يختار، بكل حرية، الموقف المناسب الذي يحبه ويرتضي المنظور الإيديولوجي الذي يلائمه ويوافقه، دون أن يكون المتلقي في ذلك مستلبا أو مخدوعا من قبل السارد أو الكاتب أو الشخصية. ويعني هذا كله أن الرواية البوليفونية مختلفة أيما اختلاف عن الرواية المنولوجية أحادية الراوي، والموقف، واللغة، والأسلوب، والمنظور؛ بوجود تعددية حوارية حقيقية على مستوى السُّرّاد، والصيغ، والشخصيات، والقراء، والمواقف الإيديولوجية.فإنّ أهم سمة من سمات الرواية البوليفونية هي وجود علاقات حوارية بين الشخصيات الروائية.[9]بما أن السرد قائماً على الشخصية التي تقوم بأحداث؛ فمن المؤكد أن تعبر الشخصية عن ذاتها من خلال الحوار والصلة في ما بين الشخصيات الأخرى وقد تكون غاية الشخصية تطوير القصة على صعيد متميز ومؤثر. لاشك أن الرواية الحديثة حفلت بمعظم الأصوات وقد كانت لهذه الأصوات حصتها من الحضور على طول مساحة الرواية وكأن الرواية مصنوعة لأجل هذه الأصوات ويمكن النظر إلى هذه الأصوات على أنها ركيزة أساسية في العمل الروائي ترتكز على موضوع محدد ومتلائم مع الأصوات الأخرى.

نخلص مما سبق أن الرواية البوليفونية تتسم بوعي الشخصيات بذاتها وبالعالم من حولها ونلمح هذا من خلال أصواتها وأساليب خطابها وتمثل هذه الشخصيات بصوتها الفريد أحداث الرواية بحيوية. إذ أنَّ لأصوات الشخصيات صدى مميز وفعال في المتن الروائي وتنمو الرواية بهذه الشخصيات من خلال الدلالات

التي تحملها. البوليفونية من أهم الأمور التي تتطرق إليها الناقد الروسي باختين، فهو يعتبر إن أهم ظاهرة في الرواية هي ظاهرة التعدد الصوتي التي تتيح للرواية أن تشتمل على مجموعة من الحوارات والدلالات وهي خير وسيلة لتكثيف الرؤى والأفكار ويعتبر الوعي من السمات الأساسية التي تستند عليها البوليفونية في الحوار بين الشخصيات الروائية؛ وهذا يعني تواجد الموضوع في إطار يكشف لنا أفكار وتصورات مختلفة عن الموضوع. إن الرواية البوليفونية هي عالم تعبيري تبوح فيه الشخصيات بما يختلج في نفسها بكل عفوية وذاتية لخلق الجو الأدبي وإضفاء الحيوية والتوصيل والتأثير في نفس القارئ.

3- نجيب محفوظ؛ حياته وثقافته

ولد نجيب محفوظ في حيّ الجمالية بمدينة القاهرة في 11 من ديسمبر عام 1911م في أسرة متوسطة الحال؛ كان والده موظفاً صغيراً ثمّ تحوّل إلى تاجر. كانت أمّه سيدة متدينة متحررة إلى حدّ ما، وكانت تصحبه معها دائماً في زياراتها إلى الأهل والجيران وهكذا رأى كثيراً من مناطق القاهرة. لمّا بلغ نجيب محفوظ الثانية عشرة من عمره انتقلت أسرته من الجمالية إلى العباسية وكان لهذا الانتقال تأثير كبير على حياته.[10] «النشأة في أحياء شعبية قديمة "الجمالية والعباسية" تركت بصمات فكرية حادّة في نفسه انعكس صداها في كلّ ما كتب، لذلك نجد معظم رواياته تدور في أماكن بعينها، هي منطقة الجمالية في حيّ الأزهر ومنطقة العباسية الشرقية.»[11] «تزوّج نجيب محفوظ متأخراً في عام (1954) عندما بلغ الثالثة والأربعين من عمره وأنجب بنتين هما أمّ كلثوم وعائشة ولم يخرج من مصر إلا مرتين في زيارتين قصيرتين لليمن ويوغوسلافيا.»[12] توفى نجيب محفوظ يوم الأحد من 16 يوليو في عام 2006م.

تكوّنت ثقافة أمير الرواية العربية، الروائي الكبير "نجيب محفوظ" في قراءاته الأولى بقراءته قصة بوليسية استعارها من صديق طفولته في المدرسة الابتدائية واطلع على الأدب العالمي من خلال كتاب يتناول تاريخ الأدب منذ عصر الإغريق حتى عام (1930م) عنوانه "درنک ووتر" وقد أرشده هذا الكتاب إلى قراءة عدد من المؤلّفات الأدبية المختارة لنخبة من كبار الكتاب.[13] الروائِي نجيب محفوظ بدأ مسيرته في الكتابة في الثلاثينات من عمره، عبر كتابة بعض القصص القصيرة في مجلة تعرف

باسم الرسالة. أول رواية له والتي اسمها عبث الأقدار نُشرت عام 1939م. إن أعمال نجيب محفوظ الأدبية عظيمة بمضمونها، وجديرة لنيل جائزة نوبل في الأدب. [14]

استطاع نجيب محفوظ، رائد الرواية العربية المعاصرة أن ينشأ تحولاً عظيماً في الرواية والقصة القصيرة في الأدب العربي خاصّة مصر بجهوده وابداعاته.[15] إنه أكبر كاتب عربي في عصرنا هذا ومن أهم أعماله الروائية نذكر على سبيل المثال: "همس الجنون"، "كفاح طيبة"، "بداية ونهاية"، "قصر الشوق"، "ثرثرة فوق النيل"، "أولاد حارتنا"، "عبث الاقدار"، الحب تحت المطر"، "اللصّ والكلاب" و"الطريق". نجيب محفوظ أديب وروائي مصري ألف عشرات الروايات والقصص وتميزت أعماله بالمثالية من حيث إلمامها بكل ما يسود المجتمع المصري. والجدير بالذكر هو أن نجيب محفوظ أكثر روائي عربي نُقلت أعماله إلى السينما والتلفزيون.

4-قراءة في رواية اللصّ والكلاب:

اللصّ والكلاب إحدى روايات نجيب محفوظ الشهيرة التي عرض فيها الشخصيات لتشكل الصراع في عالم القصة. نرى في هذه الرواية اهتمام الراوي بمنح الحرية للشخصيات في سرد القصة. رواية اللصّ والكلاب من أشهر مؤلفات نجيب محفوظ وقد اقتبسها من قصّة حقيقية حدثت في الإسكندرية. تدور أحداث القصة حول الشخصيات الرئيسة مثل سعيد مهران، ورؤوف علوان، والشيخ علي الجندي ونور؛ المرأة التي أحبّها سعيد وشخصيات ثانوية أخرى. هذه القصة ترسم مأساة البطل "سعيد مهران" بسبب الأشخاص الذين قدروا به وخدشوا روحه والذين كان يحاول الانتقام منهم لكن في كل مرة كانوا يفلتون من يديه. تبدأ الرواية بخروج البطل من السجن وعودته إلى الحي الذي كان يسكنه منذ القديم حيث وجد أن زوجته تزوجت من شخص يدعى "عليش" فقام برفقة أهالي الحي وبحضور المخبر باجتماع مع "عليش" ليطالب بحقه من ابنته وماله وكتبه ومما لهثم فوجئ أنّ ابنته "سناء" استنكرته استنكارا شديدا وكأنها ليست بابنته، فانكسر قلبه حتى لم يبق فيه إلا الشعور بالضياع. وهكذا يخيب أمل سعيد ويحمل كتبه المتبقية ويذهب. ولا يشفى غليله سوى التفكير بالانتقام. فيمضى نحو طريق الجبل لمقابلة الشيخ صديق والده ويآوى إليه ويخبره بالتفصيل الممل عن ما حدث له خلال هذه الأعوام وهو في السجن وعن خيانة زوجته، فيدعوه الشيخ ليتوضأ ويردد بعض من آيات القرآن

ويدعوه إلى الإيمان. يقضي سعيد أول ليلة من ليالي الحرية عند الشيخ ويقرر بعدها الذهاب نحو صديق طفولته "رؤوف علوان" الصحفي لكن ينهزم مرة أخرى بعدما يجد أن رؤوف لا يرغب بمقابلته وقد تغير وصار من الأغنياء وتزداد صدمات الخيانة في روحه بعد أن تنكر له رؤوف، نفس الشخص الذي زرع في قلبه أفكار الثورة والتمرّد. ومن ثم يلتقى سعيد بنور التي كانت تحبه منذ قديم ولم يجد ملاذاً أفضل من نور حيث وفّرت له شروط الانتقام. وهكذا بدأت أول خطوته نحو الانتقام بإطلاق النار على منزل عليش في منتصف الليل لكن من سوء حظه أطلق النار على رجل برئ باسم "على حسين شعبان". ومما أثار جنونه وغضبه هو أن الصحفي رؤوف بالغ في وصف جريمته في الجريدة وهذا ما شكل حافزاً قويا نحو تنفيذ خطة انتقامية ضد رؤوف. فطلب من نور أن تبدأ بخياطة بدلة عسكرية له. وبعد ما تهيأت بدلته اتجه نحو قصر رؤوف وأطلق عليه النار وبما أنّه في نفس الوقت أحد حراس رؤوف أيضا أطلق النار فما عرف سعيد هل قتل رؤوف أم لا؟ وبعد فترة أدرك أنه أخطأ مرة ثانية حيث قتل شخصا بريئا بدل المجرم. بعد كل هذه الأحداث غادرته نور دون عودة حيث انهكه الانتظار واشتد به الألم والوحدة والضياع. وفي النهاية نجد البطل سعيد يغادر البيت عند منتصف الليل ويواصل سيره إلى حجرة الشيخ.تسود الحياة في عينه ويمحو الإرهاق إرادته فينام نوماً عميقاً. وإذا بصوت ساطع يغمر المنطقة ويهتف صوت: "سلم، لا فائدة من المقاومة". يجاهد سعيد بكل قوة ليبذل مقاومة أخيرة لكن سرعان ما يتلاشى أمله ويستسلم بلا مبالاة. وأخيراً نستطيع القول إن نجيب محفوظ من خلال هذه الرواية يصور بيئته الاجتماعية ويلقي الضوء على الظروف المتأزمة والمشاكل التي واجهها في الحياة. تعتبر هذه الرواية بمثابة مرآة للحياة الاجتماعية وصورة جلية لهموم الإنسان المعاصر وقضاياه.

5-البوليفونية في رواية اللصّ والكلاب:

كما ذكرنا سابقاً إن الفكر الباختينيى نادي بالتعدد والتباين من خلال حضور مختلف اللغات لكسر اللغة الأحادية وتجسيد الخطابات المتنوعة لتشخيص ملامح الشخصيات ورؤيتها للعالم عبر سردها. إنّ الرواية في نظر باختين هي تجسيد الإيديولوجيات المختلفة من خلال التحاور بين الشخوص ونقلها إلى المتلقي.نرى في الرواية البوليفونية أن لا وجود لهيمنة الكاتب ورؤاه داخل السرد بل تنوعت الرؤى

بتنوع الأصوات داخل الرواية وتمثلت في منظورات وأساليب مختلفة. كما نلمح في هذا النوع من السرد الباختيني أشكال الوعي المتعددة داخل النص وقد تؤدي هذه الأشكال إلى ظواهر من الواقع. إن رواية اللصّ والكلاب تُعد إنجازا فنيا جريئا يعكس قضية الخيانة والخيبة في المجتمع التي تحول دون طموح الإنسان. نرى أساليب متعددة من تعدد اللغات والشخصيات المتعددة في الرواية المذكورة ومن هذه الأساليب البوليفونية المختلفة سنعالج في هذه الدراسة: التهجين، والأجناس التعبيرية، والحوارات الخالصة والتعددية الايديولوجية.

1-5-التهجين

تطورت الرواية الحديثة بحيث لم يعد صحيحاً التعامل مع الرواية على أساس أنها وسيلة لنقل أفكار الكاتب ومعتقداته بل أصبحت الرواية مكتنزة بعناصر صوتية ودلالية أخرى ولديها القدرة على امتلاك لغات أخرى سوى لغة الكاتب وتحتوى على أشكال وأساليب متجددة لتستوعب الكثير من الأصوات من خلال أساليبها ومن هذه الأساليب التهجين. يلعب التهجين دورا بارزا في الرواية البوليفونية و«يشكل أحد أهم عناصر ومظاهر حوارية باختين، وكما يعرفه باختين هو عبارة عن مزج لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، وهو أيضاً التقاء وعيين لسانيين مفصولين بحقبة زمنية، وبفارق اجتماعي، أو بهما معا، داخل ساحة ذلك الملفوظ وهو إما يكون إرادياً أو غير إرادي.»[16] يرى ميخائيل باختين تنوّع الخطاب الروائي أمراً يزيد العمل الأدبي جمالاً ورونقا بما أنه يسهم في كشف جوانب شخصيات أخرى. باختين «لا يُنقّي خطاباته من نواياها ومن نبرات الآخرين ولا يقتل فيها أجنّة التعدد اللساني الاجتماعي،ولا يستبعد تلك الوجوه اللسانية وطرائق الكلام، وتلك الشخوص الحاكية المضمرة التي تتراءى في شفافية خلف كلمات لغته وأشكالها.»[17] وهكذا سرعان ما يكشف السرد عن موقف الشخصيات ومستواها التكويني«وبعبارة أخرى، يستند التهجين إلى الجدل الخفي، والخلط بين حوارين؛ أحدهما حوار صريح، والآخر حوار خفي، يشكلان معا جدلا بين شخصيتين: شخصية حاضرة مشخصة (بكسر الصاد)، وشخصية غائبة مشخصة (بفتح الصاد).»[18]وهو عبارة عن «تعالق لغتين غير متكافئتين إحداهما مشخَصة (بفتح الخاء)، والأخرى مشخِصة (بكسرها)، تقدمان

عبر وعي فردي منسكن بحمولة رؤيوية للعالم. ومعناه أن البناء الهجين يتأسس على ثنائية الفردي/ الجماعي.»[19]

يوفّر التهجين ثروة صوتية بارزة في رواية اللصّ والكلاب ويجسد الحوار بين الشخصية الحاضرة والشخصية الغائبة ويلائم بينهما فى النص. لهذا يكتسب التهجين في هذه الرواية رونقاً خاصاً وحضورا رائعا وكثيرا ما يلجأ الكاتب إلى هذا النوع من السرد؛ من أمثلتها نورد النموذج التالي:

«فقال الشيخ بعتاب: توضأ واقرأ (قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعونى يحببكم اللّه) واقرأ (واصطنعتك لنفسى)... ها هو أبي يسمع ويهز رأسه طربا. ويرمقني باسماً كأنما يقول لي اسمع وتعلم. وأنا سعيد وأود غفلة لأتسلق النخلة وأرمي طوبة لأسقط بلحة وأترنم سرا مع المنشدين.»[20]

يمكن القول بوضوح بأن هنا يلاحظ المتلقي نوعا من التهجين والخلط بين الحوارات والأساليب داخل هذا الكلام الذي ورد في صيغة الأسلوب غير المباشر الحر. في هذا المشهد نرى بعدما أقام سعيد عند صديق أبيه الشيخ، يقوم الشيخ بدعوته نحو قراءة الآيات القرآنية ويشكل هذ الفضاء الروحاني حافزاً ليتذكر سعيد أباه الذي فارق الحياة منذ سنين ويستحضر أب سعيد بكل لطافة داخل كلام سعيد وينقل سعيد كلام الشخصية الغائبة "كأنما يقول لى إسمع وتعلم" ويضمّها ضمن حواره وهكذا كأن الشخصية الغائبة تحضر في السرد وترد على الآخرين، وهذا يعني أن كلام الغير حاضر في النص حتى وإن كان صاحبه غائب. ومن ثم، يبدو أن هذا النوع من الحوار الذي تمتزج فيه لغة الشخصية الحاضرة مع الشخصية الغائبة يزيد النص روعة وجمالاً لاسيّما عندما يضمّ السارد انفعالات الشخصية الغائبة وحالاتها وكأن الشخصية ليست غائبة بل متواجدة مع كل حالاتها وهذا ما نلمسه عندما يصف السارد شخصية الأب بجلالتها الكاملة مثل" يرمقني باسماً ويهز رأسه طربا". «ففي هذا الكلام يبدو وكأن ردودا غيرية تندس، هذه الردود التي تعتبر من الناحية العملية غائبة في الحقيقة، إلا أن أثرها تترتب عليه بنية نحوية ونبرية حادة للكلام. لا وجود للردود الغيرية، إلا أن ظلها يخيم بكثافة على الكلام.»[21] وهكذا استخدم السارد بتقنياته الفنية والجمالية نشاطه الابداعي في عملية التجديد في داخل متن الرواية.

نجد أوضح مثال للتهجين في رواية اللصّ والكلاب في مشهد آخر من الرواية نذكره هنا:

«يا له من ظلام! انقلب خفاشا فهو أصلح لك. وهذه الرائحة الدهنية المتسربة من باب شقة ما في هذه الساعة من الليل! متى تعود نور وهل تعود بمفردها؟ وهل يمكن أن أبقى في بيتها؟ لعلك تظن يا رءوف أنك تخلصت مني إلى الأبد؟ بهذا المسدس أستطيع أن أصنع أشياء جميلة على شرط ألا يعاكسني القدر. وبه أيضا أستطيع أن أوقظ النيام فهم أصل البلايا. هم خلقوا نبوية وعليش ورؤوف علوان.»[22]

نرى في هذا المقطع إن الشخصية الرئيسة "سعيد مهران" يتكلم مع نفسه عندما يذهب لبيت نور وفي ضمن كلامه يحضر شخصية غائبة وهي رءوف، حيث لا حضور له مع المتكلم بل يضم المتكلم كلامه وأفكاره ضمن كلامه ويعبر عنه حيث لم نجد لغة رؤوف حاضرة. إن سعيد بهذا الكلام "تظن يا رءوف أنك تخلصت مني إلى الأبد؟" يفصح عن أفكار رءوف الذي كان يفكر بأن ينجو سالماً من أيدي سعيد. الظاهرة اللافتة للانتباه هنا هي أنّ اللغة هنا ليست أحادية،بل هي لغة حوارية غيرية ومزدوجة الصوت.وهكذا نستطيع القول أن «جميع لغات التعدد اللساني، مهما تكن الطريقة التي فردت بها، هي وجهات نظر نوعية حول العالم، وأشكال لتأويله اللفظي، ومنظورات غيرية دلالية وخلافية. بهذه الصفة يمكنها جميعا أن تتجابه، وأن تستعمل بمثابة تكملة متبادلة، وتدخل في علائق حوارية. بهذه الصفة تلتقي وتتعايش داخل وعي الناس، وقبل كل شيء داخل وعي الفنان»[23]والإشارة التي يجدر بنا ذكرها هي أنّ السارد في رواية اللصّ والكلاب لا يؤمن بالصوت الفردي بل يجعل في الرواية خطاب هجين تشكله الخطابات الأجنبية. وبناء على ما سبق، إذا كانت الرواية المنولوجية ذات صوت إيديولوجي واحد، تعتمد على السارد المطلق العارف بكل شيء، وتستند إلى سارد واحد، ورؤية سردية واحدة، ولغة واحدة، وأسلوب واحد، وإيديولوجية واحدة، فإن الرواية البوليفونية رواية متعددة الأصوات، على مستوى اللغة، والأساليب، والمنظور السردي، والإيديولوجي، وكذلك من حيث الشخصيات.

2-5-الأجناس التعبيرية

سبق لنا الحديث فيما سبق أن الرواية الحديثة تطورت وتنوعت_في شكلها باستعمال جملة من الأجناس التعبيرية_في العمل الروائي. ولاشك أن هذه الأجناس هي التي تعد البنية الأساسية للرواية بسبب أهميتها الجمالية والدلالية. وهذا يعني أنّ كل ما ازدادت أشكال الرواية ازداد جمالها وفنّها الإبداعي وكانت ذات أثر أبلغ على المتلقى. يرى باختين «إن الرواية تسمح بأن ندخل إلى كيانها جميع أنواع الأجناس التعبيرية،سواء كانت أدبية (قصص، أم أشعار، أم قصائد، أم مقاطع كوميدية) أو خارج-أدبية(دراسات عن السلوك،نصوص بلاغية وعلمية، ودينية، الخ) وتحتفظ تلك الأجناس، عادة، بمرونتها، واستقلالها، وأصالتها اللسانية والأسلوبية»[24] إن بعض هذه الأجناس تعد من السمات الرئيسة_في عمل ما بحيث لا يمكن أن يستغني عنها السارد_في عملية السرد، أو بالأحرى لا يمكن أن يتشكل السرد دون هذه الأجناس التعبيرية.

وقد رأينا هذا الأمر جليا عند الروائي "نجيب محفوظ"_في رواية اللصّ والكلاب حيث تنبثق عن لغته الروائية أجناسا تعبيرية مختلفة ونحاول هنا أن نبلور الحديث عن هذه الأجناس التعبيرية استنادا على الأجناس الأكثر توظيفا عنده وهي النصوص الدينية. من الملاحظ أنه عندما نتصفح رواية اللصّ والكلاب نلمح كثير من النصوص الدينية_في طياتها وتتخذ النصوص الدينية مكانة مرموقة فى هذه الرواية وتتمثل كإحدى آليات التعبير. ومن هذه النصوص الدينية نستيطع الإشارة إلى النموذج التالي:

«جلس عند النخلة يشاهد صفى المريدين تحت ضوء الفانوس...و أغمض الشيخ عينيه فكأنه نام... وتساءل ليوقظه:

- ألا تزال تحيا الأذكار هنا؟

فلم يجبه. وساوره القلق فعاد يسأل:

- ألا ترحب بي؟

ففتح الشيخ عينيه قائلا:

- ضعف الطالب والمطلوب...

فقال سعيد:

– على كل حال فهذا البيت بيتي، كما كان بيت أبي، وبيت كل قاصد، وأنت يا مولاي جدير بكل شكر.

فقال الشيخ:

– اللهم إنك تعلم عجزي عن مواضع شكرك فاشكر نفسك عني، هكذا قال بعض الشاكرين!»[25]

نلاحظ هنا إن لغة الرواية تتسم بعبارات دينية تجري على لسان الشخصية الروحانية_في الرواية وهي شخصية الشيخ. فنرى إن معظم كلمات الشيخ كلمات معنوية ودعائية تنساب شخصيته. إن الشيخ_في حواره مع سعيد كثيرا ما يستعمل هذا الأسلوب وإن إجاباته متخذة من الأحاديث والأدعية مثل "ضعف الطالب والمطلوب" وجاء اكثر كلامه على أسلوب النداء والدعاء مثل هذا الكلام: "اللهم إنك..." قد رأينا إن الصورة العامة_في هذا المقطع هي النصوص الدينية المهيمنة على لغة السرد.و مما يمكن أن يذكر مثالا ثانيا للنصوص الدينية_في الرواية هو المقطع التالي:

«فقال الشيخ بعتاب:

– توضأ واقرأ (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)، واقرأ (و اصطنعتك لنفسي) وردد قول القائل «المحبة هي الموافقة أي الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدَّر»[26]

من المؤكد أن الخطاب الديني واستعمال الآيات والأحاديث له صدى واسع في مقاطع من رواية اللص والكلاب وهذا الأمر وهو المزج بين أسالب متعددة قد يزيد اللغة نشاطا وحيوية ويتماشى مع هدف الرواية الحديثة وهو تعدد الأشكال والإيديولوجيات. إنّ صوت الشيخ الفريد تبلور باستعمال الآيات القرآنية كما نرى وهكذا تميزت الرواية بهذا الصوت الروحاني لتعكس هذه الشخصيات عن معتقداتها ووجهات نظرها وتصوراتها وتجسد ذهنيتها وفلسفتها_في الحياة من خلال هذا الأسلوب. ويستمر هذا الاسلوب_في طول الرواية وهذا الأمر متناغم مع هذه الشخصية وجعلت لغة الرواية تمتاز بشيء من التنوع التعبيري.

ومن الأجناس التعبيرية الأخرى_في الرواية نشير إلى لغة الشعر حيث استخدمت الرواية العربية الحديثة هذه اللغة الشعرية بهدف استخدام سحرها وجمالياتها للتأثير_في المتلقي، من خلال السحر الذي تمارسه هذه اللغة عليه، كما

يؤكد الناقد الروسي "ميخائيل باختين"على دور هذه اللغة الشعرية؛ «فالجوهر الشعري لا يخص الشعر وحده بل هو موجود في كل كلام بأقدار متفاوتة، واحتضان الرواية للشعر صورة من صور هذا التواجد، وقد أشار باختين في حديثه عن الأجناس المتخللة للرواية، إلى أن الشعر كان حاضرا دائما في الكتابة الروائية»[27] ومن أمثلة صورة الشعر في رواية اللصّ والكلاب نورد المثال التالي:

«ردد الشيخ على الجنيدى ثلاثا «الله» فردد الآخرون النداء في نغمة... وعند ذاك علا صوت رخيم مترنما:

واحسرتي، ضاع الزمان، ولم أفز
منكم، أهيل مودتي بلقاء
و متى يؤمل راحة مَن عُمره
يومان، يوم قلى، ويوم تناء

و ارتفعت التأوهات في الأركان، ثم ارتفع صوت آخر يترنم:

و كفى غراما أن أبيت متيما
شوقي أمامي والقضاء ورائي»[28]

من خلال هذا النص الروائي نجد في الرواية لغة شعرية عذبة تتجلى بوضوح في هذا المقطع. إن لغة الشعر في هذا النص تصور إحساسا رائعا وتوحى بما يختلج بالنفس من مشاعر وتعكس لنا العوالم النفسية للشخصيات بأسلوب جماليّ. وهذا الأسلوب هو الذي يحقق التنوع الكلامي داخل الخطاب الروائي الأمر الذي يؤكد عليه باختين. والجدير بالذكر هو أن الأجناس التعبيرية في رواية اللص والكلاب تتيح للسارد أن يتحرر من اللغة الأحادية ويحتفل بعوالم تتعدد فيه اللغات والأساليب.

عندما نتوغل في رواية اللصّ والكلاب نجد مجموعة من الأجناس التعبيرية المختلفة تعمل في تطور السرد حيث تكون كل واحدة منها تعكس حالة شعورية خاصة للشخصيات التي لها أحاسيسها ووجدانها. وقد نراها تظهر على مستوى عبارات وحوارات مختلفة. فالرواية الحديثة لا تتقيد بالتجربة الذاتية بل هي تصوير حي لتجربة تحمل دلالات إنسانية تتراءي من خلال أحداث ومواقف خاصة ضمن الرواية.

3-5-الحوارات الخالصة

للحوار دور أساسي في تشكيل النص الروائي وإنه من أبرز وأهم الأساليب الفنية والتعبيرية في الرواية، التي حفل بها الروائيون في العمل الأدبي وعلى أساس أن الحوار يكتسب أهمية كبيرة داخل الرواية، فالروائي دائم الحاجة إليه وغالبا ما يأتي الحوار في مواقع كثيرة في النص. ويعالج باختين موضوع الحوار كعنصر أساسي في عملية السرد. «يقصد "باختين" بالحوار الخالص ما سماه أفلاطون منذ زمن بالمحاكاة المباشرة (mimesie)، أى حوار الشخصيات فيما بينهم داخل الحكي، و"باختين" كعادته يستخدم صيغا متعددة للتعبير عن الشيء الواحد، لذلك نجده يتحدث أيضا عما يسمى "الحوارات الدرامية الخالصة"، ثم عن "حوار الرواية"، وهو يقصد دائما حوار الشخصيات المباشر في الحكي، كما نجد الحوار الخالص يأتي غالبا بعد فعل القول أو ما فيما معناه، ويكون مسبوقا بنقطتين وموضوعا بين قوسين مزدوجين، مثاله: قالت له: "أغرب عن وجهي"»[29] يؤكد باختين أن الاتجاه الحواري للخطاب يعطيه إمكانات أدبية جديدة وجوهرية، كلما كانت التنافرات والتناقضات الفردية والاجتماعية أكبر ازدادت الصناعة الحوارية الدّاخلية قوّة وفنّية.[30] الجدير بالذكر هنا إن الحوار الذي نجده في رواية اللصّ والكلاب هو هذا النوع من الحوار الخالص أو المباشر؛ والمثال على هذا هو الحوار الذي دار بين بطل الرواية "سعيد مهران" و"الشيخ على":

«و التفت الشيخ نحوه وقال برقة:

- أنت متعب، قم فاغسل وجهك...

فقال بضيق وهو يطوي الجريدة:

- سأذهب وأريحك من منظري...

فقال في مزيد من الرقة:

- هذا مأواك...

- نعم، ولكن لم لايكون لي مأوى آخر؟

فقال وهو يطرق:

- لو كان آخر ما جئتني!»[31]

نلمح هنا كيف يوظف الروائي الحوار المباشر بين الشخصيات ويخلق البنية الحوارية داخل الرواية. نرى هنا مجالا رحبا لتجسيد الحوار ونجد أنّ المقاطع الحوارية قد بدأت بفعل "قال". يشكل الحوار بين سعيد والشيخ علي الانسجام والتكامل_في الرواية وينقل لنا السارد من خلال هذا الحوار مفاهيم ومشاعر عن الشخصيات وينقل إلينا كلامهم وأفكارهم وبهذا التوظيف استطاع الكاتب أن يلج داخل البطل ويحلل مشاعره ونفسيته، فهو ينظر إلى العالم الخارجي من وجهة نظر هذه الشخصية.

وفي مكان آخر نجد هذا النوع من الحوار نورده_في ما يلي:

«عقب منتصف الليل اخترق سعيد الصحراء وفي الجانب الغربي من السماء شيء من القمر... وما لبث أن جاء طرزان كموجة من الظلام فتعانقا ثم سأله:

- هل من جديد؟

فقال الرجل وهو يلهث بما يتناسب مع سمانته:

- أخيرا جاء واحد منهم...

فتساءل سعيد بلهفة:

- من؟

فشد على يده قائلا:

- المعلم بياظة وهو الآن_في القهوة يعقد صفقة...»[32]

يرى باختين أن كل رواية تمثل عددا من مستويات اللسان وفي كل عمل روائي يتكلم أناس عديدون، لكل لغته الخاصة ونبرته المتميزة، ويتوقف نجاح الكاتب على استقلال شخصياته عنه_في تفكيرها وحوارها للآخر.[33] في هذا المقطع من الرواية يجرى حوار مع سعيد والمعلم طرزان. من خلال هذا الحوار نتعرف على شخصية طرزان الذي كان يحاول أن يساعد سعيد ويخفف من مأساته. تقوم الشخصية هنا من خلال الحوار بدور فعال_في بناء الرواية فهي تحمل فكرة هامة.

إن الكاتب هنا يعتمد على الحوار_في رسم الشخصية وتحديدها وكذلك_في الكشف عن عواطفها وأبعادها ومواقفها، بالإضافة إلى أن الحوار هنا يظهر لنا خصائص الشخصية ويعرض وجهة نظرها المتميزة إزاء الأحداث. فالمعلم طرزان كان من الذين يحبون سعيد ويساعدونه. لابد من الانتباه إلى أن الروائي يستمر_في

توظيف الحوار في معظم الرواية ويشغل الحوار الخالص حيزا واسعا من رواية اللصّ والكلاب.

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الحوار الخالص يتجسد جليا في الرواية وإنّ الحوار في هذه الرواية يرتكز على التعددية وله علاقة بالبعد الاجتماعي والايديولوجي الذي يرمي إليه الكاتب. تتعمق الدلالات والأبعاد الايديولوجية في الرواية من خلال الحوارات الخالصة التي يوظّفها السارد وتعدّ المحور الأساسي للرواية حيث تمكننا من التعرف على جميع الشخصيات وخصائصها.

5-4-التعددية الايديولوجية

إن الميزة الجوهرية للعمل الروائي تتجلى فى أنه يحمل أفكار وآراء متميزة؛ إنّ البوليفونية ترتكز على تعدد الأصوات والحوارات وذلك من خلال توظيف أنواع الضمائر. إنّ السارد من خلال السرد البوليفوني يعطي لكل الشخصيات الأولوية حتى تدل بآرائها ووجهات نظرها والمؤلف يمهد الأرضية الخصبة للحرية والاستقلالية في كيان القصة وتتميز الرواية من خلالها بالشفافية البعيدة عن التزييف. «يرى باختين أنتعدد الأصوات لا يتلاءم وأحادية الفكرة في النمط الاعتيادي على هذا يعتبر تعدد الأيديولوجيات وتباينها وتساوي قيمتها في العرض من صلب البوليفونية.وعلى غرار حوارية أنماط الوعي يصر باختين على الطبيعة الحوارية للأفكار؛ فالفكرة الإنسانية تصبح فكرة حقيقية، وذلك فقط عندما تقيم اتصالا حيا مع فكرة أخرى غيرية تتجسد في صوت غيري، فلا قيمة للفكرة إذا ظلت منعزلة داخل الوعي الذاتي للشخصية، فهي تكتسب حياتها وفعاليتها فقط من خلال التأثير المتبادل الذي تقيمه خارجا مع باقي الأفكار المتواجدة في أنماط الوعي المختلفة.وكما قلنا من قبل، الأيديولوجيا لابد أن تكون ملتحمة بالشخصية الروائية لأنها أولا وأخيرا هي التي تحقق لها وجودها المستقل. فكل شخصية لديها وجهة نظر خاصة وتعبر عن أيديولوجيا معينة في مقابل أيديولوجيات تحملها شخصيات أخرى؛ كما يشترط باختين أنتحمل كل شخصية أيديولوجيا محددة،ففي كل رأى تقدم تقريبا شخصية بكاملها.»[34] إن التعددية الأيديولوجية أساس الرواية البوليفونية بحيث لا نرى رواية بوليفونية إلا وتشتمل عليها كما هو الحال في رواية اللصّ والكلاب حيث نجد التعددية الايديولوجية بكثرة فيها ومن أمثلتها ما نورده في ما يلي:

«وعاد بياظة يتساءل:
- العودة من أين؟
- لدي حساب يجب أن أسويه...
فتساءل بوجه ممتعض:
- مع من؟
- أنسيت أنني أب؟ وأن ابنتي الصغيرة عند عليش؟
- نعم، ولكل خلاف حل في الشرع...
و قال آخر:
- التفاهم خير...
و ثالث قال بنبرة المسالم:
- سعيد أنت قادم من السجن والعاقل من اتعظ!...
اسكت يا بن الثعلب، ماذا تريد؟
- جئت للتفاهم على مستقبل ابنتي...
- أنت تعرف التفاهم!
- نعم، من أجل ابنتي...
- عندك المحكمة...
- سألجأ إليها عند اليأس!»[35]

كما نلاحظ في هذا النموذج إنّ كل شخصية في حوارها مع بطل الرواية "سعيد" تدلى برأيها وتعبر عن فكرة فريدة كما أنّكل شخصية لديها وجهة نظر خاصة تطرحها ولهذا تجتمع الايديولوجيات المختلفة من خلال كلام الشخصيات. «في الفكر الباختيني تعرف الإيديولوجيا من خلال الفعل الكلامي الذي يكون نتاجا لاصطدام الفكرة بالفكرة الأخرى، وهذا ما يسمح بتعدد الأفكار، وينتج عنه التطور المستمر للعلاقات الاجتماعية عموما والوعي الفردي بخاصة»[36] .

يتبين لنا، مما سبق أن هذه الرواية تسلط الضوء على حياة سعيد مهران وما مرّت عليه من أحداث والإيديولوجية في الرواية ترتكز على موقف سعيد من خيانة الأقرباء وغدر الأصدقاء والإيديولوجية الواضحة هي الانتقام ورفض الظلم والخيانة. لكن هناك وجهات نظر مختلفة حول هذه الايديولوجية تجعل الرواية متعددة الأصوات في هذا الموضوع. في الرواية توجد ايديولوجيات مختلفة مثل ايديولوجية

التسليم، ايديولوجية الايمان بالله والصبر لحل الأزمات وإيديولوجية الثورة والتمرد؛ فسعيد مهران كبطل القصة يرفض ظلم المجتمع وغدر البشر الذين يريدون منافعهم الشخصية ويحاول الانتقام منهم لكن في إزاءه ايديولوجيا تخالفه وتدعوه نحو التسليم والخضوع للقانون والحكومة. أما سعيد الشخص التعيس والذي عاش تحت ظل أنواع الظلم والاضطهاد لم يكن يقنع إلا بالانتقام وممارسة خطة انتقامية ليشفي غليله. تظهر في طول الرواية تعدد الرؤى والمنظورات الايديولوجية حول هذا الموضوع حيث نرى لكل شخصية وعي خاص وايديولوجية فريدة حسب المواقف الفردية، كانت ايديولوجية البطل رفض الظلم والثورة على كل خائن وكان يحلم البطل بتغيير الوضع لكن في النهاية وفي نقطة ختام الرواية استسلم ولم يتمكن من الانتقام حتى من شخص واحد من الأشخاص الذين حطموا حياته حيث حالفه سوء الحظ في كل مرة وأخيرا استسلم رغم إرادته لتكتمل مأساته بطريقة مؤلمة.

6-النتائج

في ختام الدراسة وصلنا إلى مجموعة من النتائج المهمة نوردها فيما يلي:

- ظهرت البوليفونية لتحتوي على وعي الشخصيات من خلال استقلال كل شخصية وحريتها في صوتها ونرى بوضوح في هذه الرواية أن لا وجود لهيمنة الكاتب على خلاف الرواية المونولوجية. على هذا الأساس نستطيع القول أنّ الرواية البوليفونية تقابل الرواية المنولوجية أي أحادية الصوت بحيث لا يقف الأمر في هذه الرواية على السارد العالم بكل شيء؛ بل تبرز الشخصيات المختلفة وتتميز الرواية بالتعدد الصوتي الذي يحكم التماسك بين الشخصيات لذلك تلعب البوليفونية دورا هاما في العمل السردي.
- إن رواية اللصّ والكلاب تعد إنجازا فنيا يعكس قضية الخيانة والخيبة في المجتمع التي تحول دون طموح الإنسان.نرى أساليب متعددة من تعدد اللغات والشخصيات المتعددة في الرواية حيث تنوعت الرؤى بتنوع الأصوات داخل الرواية وتمثلت في منظورات وأساليب مختلفة منها: التهجين،والأجناس التعبيرية، والحوارات الخالصة والتعددية الايديولوجية.

- يكتسب التهجين في رواية اللصّ والكلاب رونقاً خاصاً وحضورا رائعا وكثيرا ما يلجأ الكاتب إلى هذا النوع من السرد؛ حيث يجسد الحوار بين الشخصية الحاضرة والشخصية الغائبة ويلائم بينهما في النص.
- إنّ الخطاب الديني واستعمال الآيات والأحاديث له حصته الوافرة في رواية اللصّ والكلاب وهذا الأمر وهو المزج بين أساليب متعددة قد يزيد اللغة نشاطا وحيوية ويتماشى مع هدف الرواية الحديثة وهو تعدد الأشكال والإيديولوجيات.
- إنّ نجيب محفوظ يقوم بتوظيف الحوار الخالص في معظم الرواية ويشغل الحوار الخالص حيزا واسعا من رواية اللصّ والكلاب. ولاشك أن الحوار في هذه الرواية يرتكز على التعددية وله علاقة بالبعد الاجتماعي والإيديولوجي الذي يرمي إليه الكاتب ولهذا نجد التعددية الايديولوجية بكثرة في رواية اللصّ والكلاب.

الهوامش والإحالات:

1-ميمون، زوينة، البنية الحوارية في رواية دمية النار لبشير مفتي، 2015-2016، ص 16.
2-جميل، حمداوي، النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن، شبكة الألوكةWWW.ALUKAH.NET، ص 10.
3- المصدر نفسه، ص 14- 15.
4- فاطمة، اكبرى زاده،«البوليفونية في الرواية النسوية دراسة مقارنة بين رواية "ذاكرة الجسد" و رواية "چراغ ها را من خاموش ميكنم"»، 2018م، ص 2.
5- جميل، حمداوي، النظرية الشكلانية في الأدب و النقد و الفن، شبكة الألوكة، WWW.ALUKAH.NET، ص 97.
6- ميخائيل، باختين، شعرية دويستفسكي، تر: جميل نصيف التركيتى، 1986م، ص 59.
7- المصدر نفسه، ص 95.
8- ميمون، زوينة، البنية الحوارية في رواية دمية النار لبشير مفتي، ص 25-26.
9- جميل، حمداوي، النظرية الشكلانية في الأدب و النقد و الفن، شبكة الألوكة، WWW.ALUKAH.NET،ص 97-98.

10-عبدالقاسم، ترابي/ سيدي، سيد حسين، «روايات نجيب محفوظ في ضوء النقد الاجتماعي مع عناية خاصة برواية أولاد حارتنا»، 2014م، ص 127.
11-طه، وادي، دراسات في نقد الرواية، ط 3، 1994م، ص 217.
12-عبدالله بن محمد بن ناصر، المهنا، دراسة المضمون الروائي في أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، لاتا، ص 17.
13-ابراهيم،الشيخ،مواقف اجتماعية و سياسية في أدب نجيب محفوظ "تحليل و نقد"، 1987م، ص 29.
14- MAGLTK.COM.
15-عظيم، اطهرى،«نقد و بررسى سه اثر شحاذ، عبث الأقدار، همس الجفون، لنجيب محفوظ»، تهران، دانشگاه آزاد واحد تهران مركزى، 1387ش، ص 2.
16-رضا،آنسته/ قهرمانى مقبل، على أصغر/ بلاوي، رسول، «مرايا البوليفونية في رواية الزمن الموحش على ضوء نظرية باختين السردية»، 2019م، ص 59.
17-ميخائيل، باختين،الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، 1987م، ص 67.
18-جميل، حمداوي، النظرية الشكلانية في الأدب و النقد و الفن، شبكة الألوكة، WWW.ALUKAH.NET، ص 114.
19- أحمد، فرشوخ، جمالية النص الروائي، مقاربة تحليلية لرواية لعبة النسيان، 1996م، ص 103.
20-نجيب، محفوظ، اللصّ و الكلاب، 2015م، ص 24.
21- ميخائيل، باختين، شعرية دويستفسكي، تر: جميل نصيف التركيتى، ص 3.
22- نجيب، محفوظ، اللصّ و الكلاب، ص 66.
23- جميل، حمداوي، النظرية الشكلانية في الأدب و النقد و الفن، شبكة الألوكة، WWW.ALUKAH.NET،ص 112.
24-ميخائيل، باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة،ص 88.
25- نجيب، محفوظ، اللصّ و الكلاب، ص 22-23.
26- المصدر نفسه، ص 24.
27-صورية، داودي،«تماهي السّردي و الشّعري في الخطاب الروائي عند فرج الحوار و رواية التبيان في وقائع الغربة و الأشجان أنموذجاً»، 2018م، ص 54.
28- نجيب، محفوظ، اللصّ و الكلاب، ص 121.

29- لطيف، زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، 2002م، ص 91.
30- ميخائيل، باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، ص 57.
31- نجيب، محفوظ، اللصّ و الكلاب، ص 64-65.
32- المصدر نفسه، ص 93.
33- ابراهيم، خليل، بنية النص الروائي، 2010م، ص 180.
34-وردية، الجاحضة، شعرية البوليفونية:قراءة في رواية إرهابيس لعزالدين ميهوبي، 2015-2016م،ص 66.
35- نجيب، محفوظ، اللصّ و الكلاب، ص 10-11.
36- إيمان، مليكي،الحوارية في الرواية الجزائرية، 2012-2013م، ص 5.